

تعليم المرأة في مرحلة التحرر الوطني: الفكر والممارسة

د.ة. رفيدة عطية بوملاسة

جامعة الزيتونة تونس

البريد الإلكتروني : zeitouna.unite@gmail.com

تاريخ القبول: 2017/02/12

تاريخ الاستلام: 2016/12/05

الملخص:

وصل مسار تحرير المرأة التونسية إلى الإعلان عن مجلة الأحوال الشخصية يوم 13 أوت 1956 ليكون هذا القانون أول ثمرة لجهود الزيتونيين في تونس الذين ناضلوا على امتداد النصف الأول من القرن العشرين من أجل حق المرأة في التعليم الذي اعتبر مدخلا لتحررها من الجهل والتعصب والتخلف وبالتالي مدخلا لإصلاح المجتمع وتصديا للتفكك الذي بدأ يصيبه بفعل الاستعمار. لكن جوهر التعليم الذي طالب به الزيتونيين هو ذلك الذي ينبثق من القرآن والسنة حتى لا تسلب المرأة المسلمة شخصيتها وحتى لا ينحرف مسار الإصلاح. لقد اتخذ هذا الجهد بعدين: بعد تنظيري بدأه الشيخ الثعالبي في كتابه روح التحرر في القرآن وبعد ميداني ختمه الشيخ محمد الصالح النيفر بتعليم البنات المسلمة.

الكلمات الدالة:

تحرر - امرأة - تعليم - تجديد - إصلاح.

العنوان بالإنجليزية:

Education of women in the stage of national liberation: thought and practice

Abstract:

The efforts which aim to emancipation Tunisian woman results in the declaration of « The personal issues magazine » in August 1956. This law was the first fruit or reward to the struggle of Zaitouna's educated people in Tunisia who was fighting during the first half of the twentieth century for the sake of woman's right in education which was considered as a key to her freedom and to her emancipation from ignorance, racism and degradation. Woman's education was also an entrance to the social change and a protection from the division caused by the colonization. But zaitouna's educated people

asked for an education based on ideas which spring from the Quran and the Sunna in order to prevent the Muslim woman from losing her personality and to avoid the deviation of the corrective approach.

This effort had two sides: a theoretical one started by "Taalbi" in his book "the spirit of freedom in the Quran" and a practical one finished by "Mohamed Salah Ennifer" in his project which aimed to teach the Muslim girl.

Key words:

Liberation, women, Education, Repair.

حققت المرأة في تونس المكاسب العظيمة التي جعلتها تتقدم بشكل لافت في مستويات عدة مثل التعليم والشغل إضافة إلى المشاركة السياسية خاصة بعد الثورة. وإنّ ما تحقق لها من مكاسب كان ثمرة مباشرة لمجلة الأحوال الشخصية⁽¹⁾ والتي تعدّ من أقدم النصوص القانونية في العالم الإسلامي في مجال الأحوال الشخصية، وقد نهلت من الفقه ومن تعاليم الشريعة بل وكتبتها فقهاء⁽²⁾. كما أنّ إعلان تونس دولة جمهورية وما استتبع ذلك من إجراءات تعلقته بما يعرف في تاريخ تونس بتحديث المجتمع مثل الاتجاه إلى التعليم وتوحيده وجعله إجبارياً ومجانياً وعدم التمييز في ذلك بين الإناث والذكور⁽³⁾ إنّ هذه المكاسب التي تحوّلت اليوم في مجتمع تونس إلى شكل من أشكال المسلّمات التي لا يسمح بإعادة مناقشتها أو التشكيك فيها، فالأمر قد حسم بالنسبة إلى تعليم المرأة وعملها وحسّمت مسألة منع تعدد الزوجات ومسألة المشاركة السياسية، لكن الذي لم يحسم بعد ولا يزال موضع نقاش وجدل مسألتان تتعلق الأولى بالراهن والمستقبل والثانية بالتاريخ: فأما الراهن فيتمثل في انعكاسات مشاركة المرأة في الشأن العام على الأسرة وعلى المجتمع وعليها كإمرأة وإنسان إذ يطرح اليوم سؤال عميق: كيف يمكن الحفاظ على الأسرة وعلى النسيج المجتمعي وحمايته من التفكك والانهيار أمام الثغرات القانونية المتعلقة بالأحوال الشخصية والتي لم تعط إجابات عن الوضعيات المترتبة عن خروج المرأة والمرتبطة أساساً بالأبناء والأسرة ومن ثمة المجتمع؟

لقد طرح هذا السؤال في الحقيقة تاريخياً في مطلع القرن العشرين مع مصلحي تونس عندما كان ديدهم إنقاذ الأسرة التونسية مما تردّت فيه من تفكك (كثرة القضايا في المحاكم الشرعية) بسبب جهل المرأة⁽⁴⁾، فكانت الدعوة إلى تعليمها ولكن ضمن ضوابط القيم الإسلامية والضوابط الشرعية.

من هذا المنطلق تأتي إثارتنا للمسألة الثانية المتعلقة بالتاريخ: إلى أي حدّ ساهمت النقاشات الفكرية في مطلع القرن العشرين في تمهيد الطريق نحو تعليم المرأة وتحريرها؟ هل يمكن أن نتحدث عن مدرسة إصلاحية داخل جامع الزيتونة الأعظم كان لها من الجرأة على طرح فكرة تجديد الفكر الديني الذي من أهم مداخله مسألة المرأة وما يتعلق بضرورة تحريرها والذي لا يمكن أن يتحقق إلا بالتعليم؟ ما هي جذور هذه الفكرة؟ وكيف تعاطى معها عموم المجتمع وخاصة في الحواضر؟ ألم يسهم النقاش الفكري الذي ركّز أسسه عبد العزيز الثعالبي إلى ميلاد كتاب روح التحرر في القرآن والذي سيكون منطلقاً لمؤلفات أخرى أكثر جرأة وأكثر تحدياً للفكر التقليدي الزيتوني مثل كتاب "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" للطاهر الحداد؟ ألم تثمر هذه النقاشات الفكرية تجربة ميدانية رائدة في أربعينات القرن العشرين حققها أحد شيوخ الزيتونة وهو الشيخ محمد الصالح النيفر الذي أنشأ ما يعرف بالمدارس القرآنية للبنات والتي كان من نتائجها توفير رصيد بشري سنوي في الإدارة المستحدثة؟ ألا يحق لنا اعتبار مجلة الأحوال الشخصية وإجبارية تعليم البنات في دولة الاستقلال ثمرة مرحلة نضالية طويلة في تونس خاضها الزيتونيون جنباً إلى جنب مع المدرسيين؟ إن هذه الأسئلة تدفعنا إلى قراءة هذه التجربة التأسيسية الأولى من خلال التطرق لأبعادها الفكرية مع شيخ الزيتونة المجدد عبد العزيز الثعالبي ومع إرهابات هذه النقاشات في مستوى الحوار بين النخبة من خلال قراءة في أهم الصحف التونسية خلال النصف الأول من القرن العشرين، ومن خلال التجربة الميدانية للشيخ محمد الصالح النيفر من خلال مدارس تعليم البنات.

1. الثعالبي والدعوة إلى تعليم المرأة

هل يمكن أن نعتبر الثعالبي أول رواد الإصلاح زمن الحماية الذين دعوا إلى الإصلاح الديني من خلال التطرق إلى أكثر القضايا التي اعتبرت مدخلاً لانهطاط المجتمع: التعليم والمرأة؟ الشيخ الثعالبي وهو جزائري الأصل (1874 - 1944) انقطع عن مزاولة تعليمه بالزيتونة ولم يتحصّل على شهادة التطوع، ولكنه نجح في اكتساب مهارة الاطلاع والكتابة حيث بدأ مسيرته العلمية محرراً العديد من المقالات الصحفية⁽⁵⁾ التي مثّلت امتداداً للفكر الإصلاحيّ في تونس ولكن أيضاً كانت مرآة عاكسة لفكر النهضة العربية الإسلامية التي كانت قد انطلقت مع الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني

وتواصلت زمن الثعالبي مع محمد عبده وتلميذه رشيد رضا⁽⁶⁾. وقد كان الجميع متفقون حول أسباب انحطاط المسلمين كما كانوا متفقين سبل الخروج من ذلك مستندين إلى التجربة الأوروبية التي لم يكن لها سند في القديم وإنما تحققت بالقوانين والمؤسسات القائمة على العدل السياسي والأمن والعلم. ولذلك فإن أسباب النهضة والانحطاط تبدو في نظر الإصلاحيين مستقلة عن قضية الإيمان والكفر مرتبطة بالأخذ بعوامل القوة والسؤدد⁽⁷⁾.

لقد شكّل هذا المدخل الفكريّ منطلقاً لمسيرة الثعالبي الفكرية الإصلاحية والتي دعا فيها إلى ضرورة تجديد الخطاب الديني وتخليص العقول من أدران التقليد والتزمّت والاتكالية داعياً إلى إعادة قراءة التجربة النبوية بما يمكن من الاستلهام منها والاقتراء بها حيث يقول: "إنّ الأفراد ينفرون من كلّ إصلاح إذا كان يهدد مصالحهم أو حتى ألقابهم الفارغة فكيف تستنّى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يجرف كل تلك العقبات في عشر وبضع سنين ليسير بالموكب العربي حافلاً لهداية البشر. هذا هو السر والطمس الذي نسميه النبوة والذي هو المعجزة الإلهية الخالدة"⁽⁸⁾. لقد كان الثعالبي يرى أنّ الإسلام لا يعوق التقدّم والمدنية بل إنّ توظيف الدين من أجل تأبيد مصالح الأفراد وطبقة المحافظين هو الذي يحول دون النهضة⁽⁹⁾.

فالمنهج الذي رأى الثعالبي أنه السبيل الرئيسي للخروج من الانحطاط هو الاجتهاد وتجديد الخطاب الديني وتحريره من جمود المحافظين ومن وطأة الخطاب الديني السائد الذي لم يراع مقتضيات الزمان والمكان بل واصل إهمال ما لا يكون نهوض المسلمين إلا به، وقد عبّر عن ذلك في أولى الصحف التي أدارها وهي سبيل الرشاد التي صدرت في ظلّ نظام الحماية وقبل حوادث الجلاز حيث عبّر من خلالها عن طموح كبير "لتجاوز معوقات الحاضر لإسلامي ويؤكد أنّ رغبته كانت في إنشاء ثورة بالمعنى الكامل للكلمة من أجل إنقاذ العالم الإسلامي من الوهدة التي سقط فيها."⁽¹⁰⁾

فلاجتهاد وسبل إحيائه شكّل اللبنة الأولى للخطاب الصحفي الذي حاول من خلاله الثعالبي تجديد الفكر الديني وذلك بالتطرق إلى أهمّ مداخله وموضوعاته وخاصة تلك المتعلقة بالتعليم والمرأة والطرق الدينية.

ما يهمننا في هذا المقال هو موضوعا المرأة والتعليم حيث جعل الثعالبي من سبيل الرشاد لبنة من لبنات الخطاب الصحفي في تونس الذي حاول تجديد الفكر الديني عبر اقتحام مجالاته الأساسية ونقد آليات عمله. إلا أنّ الاجتهاد أو "الفرض المتروك" كان يهدف إلى تحرير الخطاب الديني من قبضة النخبة التقليدية ولكن دون السقوط في الفكر الغربي لأنّ الاجتهاد ليس تجنّسا وإنما هو تدعيم للكيان الحضاري الإسلامي⁽¹¹⁾.

إنّ قضية المرأة وتعليمها بالنسبة إلى الثعالبي بقدر ما كانت محدودة في سبيل الرشاد طرحت بجرأة كبيرة في كتابه "روح التحرر في القرآن" (12) والذي بسببه اتّهم بالزندقة وحوكم بالسجن ثلاثة أشهر لما اعتبرته النخبة التقليدية مسّا بمكاسبها العلمية وخوفا على عقائد العامة من الانحراف⁽¹³⁾. فهو في نص طريف يعتبر أنّ "حجاب المرأة أو غطاء وجهها إنما هو بدعة انتشرت بسبب احتكاك العرب بالشعوب المفتوحة وخاصة الفرس"⁽¹⁴⁾. وقد استند الثعالبي إلى عدة آيات وأحاديث ليستخلص منها أنه يجب على النساء كشف وجوههن ولا ينبغي لهنّ الانزواء في بيوتهنّ والاحتجاب عن الأنظار ويتحتم عليهنّ طلب العلم والالتزام بسلوك لائق ومحترم. إنّ هذا الخطاب إنّما هو تواصل لخطاب النهضة العربية التي دعاء مفكروها منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى ضرورة تعليم البنات. فاطهطاوي ألف حول هذا الموضوع كتابا عنوانه "المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين"⁽¹⁵⁾، كما ألف قاسم أمين كتابين في نفس الموضوع⁽¹⁶⁾.

2 . الصّحافة التونسيّة في مطلع القرن العشرين والدعوة إلى تعليم المرأة

إنّ هذه المحاولة التجديديّة الاجتهاديّة لم تكن تقتصر على الثعالبي وإنّما سادت تقريبا عددا كبيرا من الصحف التي صدرت بتونس في مطلع القرن العشرين نذكر منها جريدة الحاضرة⁽¹⁷⁾ التي طالبت بتعليم المرأة كمطمح يتماشى مع الأوضاع الاجتماعية الجديدة حيث دعت إلى وضع مدارس لها برنامج مخصوص مطابق لرغائب الهيئة الإسلامية موافق لشأنها ولاحتياجاتها يشتمل أولا على تعليم الآداب العربية والعقيدة والفروض الدينية ثم تختص بقسم تعليم الخياطة والطرز والتصوير وتبوير المنزل مع جعل تعليم آلة الطرب اختيارية⁽¹⁸⁾.

فالمراة في تصوّر رواد الإصلاح ومنهم الثعالبي لها مهمة تربوية أي "تربية النشئ على القيم التي تدعم كيان الأمة وتحصن خصوصياتها القائمة على مخافة الله وحب الوطن وحسن العقيدة"⁽¹⁹⁾ وهو شكل من أشكال التصدي الفكري للدعوات الأوروبية لتحرير المرأة هذه الدعوة التي شبهتها بالسم في الدسم لأنّ فيها إفراغ للأُم في قالب واحد من حيث الشعائر والأخلاق والأفكار. صدر للحاضرة التي كان رئيس تحريرها علي بوشوشة ما يقرب من خمسة وعشرين مقالا ما بين سنتي 1889 و1911 حول مسألة المرأة وتعليمها⁽²⁰⁾ ومن العناوين اللافتة في هذا الصدد نذكر: "النساء والكتابة" (10 سبتمبر 1889)، "ضعف النسل وقلة الزواج" (1893)، "تعليم البنات" (1899)، "أول معهد للبنات" (1900)، "تحرير المرأة ورفع الحجاب ومضاره" (1903). لقد اعتبرت الحاضرة أنّ الأوضاع الاجتماعية في غير مصلحة التونسيين والإسلام لذلك جاءت الدعوة صريحة لتعليم المرأة كمدخل من مداخل الاجتهاد وتجديد الخطاب الديني. ولتحقيق هذا المطلب كانت الدعوة إلى إقامة المدارس الخاصة بالبنات التي تكون مطابقة لرغائب الهيئة الإسلامية موافقة لنشأتها واحتياجاتها تشتمل على تعليم الآداب والعقيدة والفروض الدينية ثم تختص بقسم لتعليم الخياطة والطرز والتصوير وتدريب المنزل مع جعل تعليم آلة الطرب اختيارية.⁽²¹⁾

لقد حرصت جريدة الحاضرة عبر هذه المقالات على اعتبار تعليم المرأة أمر يندرج ضمن النهضة الوطنية، وأنّ التعليم وفتح الآفاق الذهنية للمرأة سيساعد على نشأة جيل قادر على النهوض لأنّ المرأة "لم تخلق للفراش والطبخ بل هي شريكة الزوج في قيام مادة الحياة وتحضير أسباب العمران وعليها مدار سعادة الأولاد"⁽²²⁾. وبالتالي فإنّ التحرير الذي كان يدعو إليه المصلحون التونسيون لم يكن يعني رفع الحجاب أو الانفصال عن الأخلاق الإسلامية بقدر ما كان يعني إشراك المرأة في تحقيق نهضة الوطن ولكن وفق سلّم القيم الإسلامية⁽²³⁾.

يبدو أنّ الحاضرة كما الثعالبي وبقيّة رواد الإصلاح متوجسون من التعليم الإفرنجي⁽²⁴⁾ مراعاة للوضع الاجتماعي عامة والنسائي خاصة وتفاديا لإفراغ الأم في قالب واحد من حيث الشعائر والأخلاق والأفكار والحرية، ولذلك فإنّ المرأة التونسية هي امرأة وطنية ويجب أن تكون متعلمة ولكن في إطار محافظ ومع ذلك يمكنها أن تجاري المرأة التركية لو تحولت حالتها من الاستعمار إلى الاستقلال⁽²⁵⁾.

في نفس السياق وللنهوض بالمرأة والأسرة أطلقت صحيفة المشير⁽²⁶⁾ صيحة فزع سنة 1911 لما تعانیه الأسرة التونسية من تفكك تجسد في ظاهرة العزوف عن الزواج بسبب الإسراف والتبذير وكثرة القضايا المقدمة إلى المحاكم الشرعية وتطرح المشير أشكالا علاجية لعل أبرزها ضرورة تعليم البنات والتأني بهن عن الخرافات والشعوذة التي سادت المجتمع التونسي في ذلك الظرف ولكن في المقابل أقرت برفض التعليم النسائي الذي ركزته إدارة المعارف الفرنسية لأنه حسب المشير لا يحقق الترابط المحلي ولا يحقق الوحدة الوطنية بل إنّ مشروع تعليم البنات أمر موافق للشرع والعقل⁽²⁷⁾ قاعدته يجب أن تكون على مستويين: التربية والتعليم. فالتربية النسائية يجب أن تكون موافقة للطباع والعوائد دافعة لتذبذب الشخصية والخذلان الذي يضر بجسم الأسرة والمجتمع والأخلاق هي جزء أساسي في هذه التربية. وبناء على هذا المنهج لابد للمرأة من تعليم يراعي كمال عقلها ولكن أيضا يراعي بنيتها الجسدية المختلفة عن الرجل وأن يتجه إلى المهمة الأساسية الموكولة للمرأة وهي تدبير المنزل وتربية الأطفال. وعليه فإنّ هذا التعليم يجب أن يكون باللغة العربية وعلى أياد تونسية. ومن هنا رفض نشرية المشير التعليم الفرنسي ورفض للمعلمات الأجنبية (مقالات للطبيب بن عيسى). إذ يرى صاحب هذه المقالات أنّ المسلمين يعانون من تفكك الأسرة وأنّ الخلاص لا يكمن في ما يقدمه النموذج الأوروبي من تحرر النساء وإنما يكمن في ما قدمه السلف الصالح عندما كانت المرأة تبتعث روحا حيّة في المجتمع وتدفع به نحو الرقي.⁽²⁸⁾

يبدو أنّ هذه الدعوة قد راجت في الصحافة التونسية في مطلع القرن العشرين وذلك بسبب ما ذكر من تفكك للأسرة وعزوف عن الزواج بين الشباب بسبب استئثار التبذير وكن أيضا بسبب انتشار الجهل حيث أنّ الزواج بالمرأة الجاهلة لا يعود على الرجل والأسرة بالنكد والأحزان، لذلك رأت مجلة خير الدين⁽²⁹⁾ أنّ المرأة يجب أن تتعلم لسدّ الثغرة الهائلة في المجتمع، وأن يقتصر تعليمها على العقيدة والفقه والأخلاق والحساب والجغرافيا واللغة بالعربية والطبخ والخياطة وتربية الأطفال وتدبير المنزل⁽³⁰⁾ وذلك حتى يتحقق مبدأ التقارب بين المرأة والرجل وحتى نحمي المؤسسة الأسرية من التفكك. وقد استند الجعيايبي في هذه الدعوة كلى القرآن الكريم الذي كان صريحا في المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات وذلك خلافا لاعتقاد البعض بأنّ المرأة ساقطة وغير مساوية للرجل وهو اعتقاد أسس له

شيخ العارفين أرسطو "النساء شياطين خلقنا لنا". كما اعتبر الجعايبني أن هذا الاعتقاد إنما هو ذريعة يريد الرجال من خلالها الحفاظ على سطوتهم على المرأة بدعوى أن تعليمها يفتح أبواب الفجور في حين أن التعليم يهذب⁽³¹⁾. عنوان الجعايبني يؤكد أن المساواة يجب أن تستند على الأصل الإسلامي وأن لا تحاكي التجربة الأوروبية حيث كانت المساواة التامة بين الجنسين ثورات اجتماعية. ولذلك لا مطمح للمرأة في مشاركة الرجل في أعماله⁽³²⁾.

هذا التوجه الفكري بدا من خلال دراسة أهم المقالات الصادرة في الصحافة التونسية في مطلع القرن العشرين إطارا يشترك فيه الكثير من الإصلاحيين الزيتونيين، ذلك أن أغلب الصحف الصادرة مديروها ومحرروها زيتونيون ولكنهم مجددون. فصاحب "النصيحة"⁽³³⁾ محمد الصادق بن إبراهيم كان يرى أن المرأة أنزلها الله مكانة ملائمة لفطرتها الإنسانية لكن الناس انقسموا في شأنها: فريق رفعها فوق تلك المكانة فتمردت وطغت وفريق استعبدتها واغتصب حقوقها.. ورأى أن المسلمين ذهبوا مع الفريق الثاني فمنعوا المرأة الكثير من الحقوق مثل التعليم. لذلك رأت مجلة النصيحة أن تعليم المرأة ليس بدعة وإنما له ما يؤكد في تاريخ المؤمنات. أما صحيفة التقدم⁽³⁴⁾ فقد عالجت مسألة تعليم المرأة ودعت إلى حقها في تعليم عصري يبعدها عن الخرافات والمعتقدات السحرية المنحرفة مع تجنّب بعض العادات الاجتماعية كتعدد الزوجات الذي أدخل اضطرابا اجتماعيا كبيرا فشوّس الأبواب وجلب الشر وذهب ضحيته العديد من النساء⁽³⁵⁾.

في حصيلة لهذا الجرد لبعض من الصحافة التي راجت في تونس في مطلع القرن العشرين تبين أن جل هذه الصحف إن لم تكن كلها كان يشرف على تحرير مقالاتها زيتونيون تشرّبوا الفكر الإصلاحي⁽³⁶⁾. وتطرقوا إلى أهم موضوعاته وأهمها مسألة تعليم المرأة. حصل شبه إجماع بين هذه النخبة على أهمية التعليم بالنسبة إلى المرأة وذلك للخروج بالمجتمع من حالة التفكك والموت التي أصابته وتحقيق النهضة المرجوة. إلا أن جلّ الإصلاحيين كانوا يحترزون ويتخوفون من الثقافة الفرنسية التي كانت تسعى آنذاك إلى اختراق الأسرة عبر التدخل في تعليم المرأة التونسية من خلال بعث المدارس المختلطة والتي تقوم أساسا على اللغة الفرنسية⁽³⁷⁾. لذلك كانت دعوة الإصلاحيين إلى تعليم المرأة وتحقيق مساواتها مع الرجل إسلامية أي كما أقرها الدين، وتأتي ضمن سياق الدعوة إلى تجديد الخطاب

الديني وإصلاح التعليم وهي المواضيع التي روجت لها صحيفة الحاضرة لصاحبها علي بوشوشة والزهرة لصاحبها عبد الرحمان الصنادلي وكذلك مجلة المنار المصرية لصاحبها محمد رشيد رضا التي انتشرت انتشارا واسعا بالقطر التونسي وكانت تدعو بتوجيه من الشيخ محمد عبده إلى تأييد حركة الإصلاح التعليمي وتقرنها بدعوة الإصلاح الديني.⁽³⁸⁾

لذلك كانت الدعوة إلى تعليم المرأة ضمن هذا السياق وليس من خارجه أي التعليم كما أقره الدين لا كما أقرته أوروبا وذلك تفاديا لمزيد تفكك المجتمع وروابط الوحدة الوطنية والإسلامية. والحقيقة أن هاجس أوروبا ظلّ حاضرا بقوة في النقاشات المتعلقة بالمرأة وظلت رؤى الإصلاحيين الزيتونيين تعكس رؤيا مجتمعية محافظة تقرّ بأهمية تعليم المرأة وإصلاح وضعها، ولكن يبقى ذلك ضمن السياق العربي الإسلامي. وقد استمرّ هذا الثبات في التوجه حتى أربعينيات القرن العشرين وذلك على الرغم من صدور كتاب الطاهر الحدّاد "امراتنا في الشريعة والمجتمع"⁽³⁹⁾ وعلى الرغم من التحولات التي بدأت تطرأ على البنية التقليدية للمجتمع التونسي بفعل السياسة الاستعمارية التي قامت على تكريس جملة من الاختلالات على بنية الدولة وعلى بنية المجتمع والعمل على خلق معادلة الثنائيات: إدارة عصرية/ إدارة تقليدية، تعليم عصري مدرسي/ تعليم تقليدي زيتوني.

لكنّ مقاومة الاستعمار ومحاولة اختراق البيئة التقليدية المحافظة للمجتمع واجهت مقاومة مدنية عملت على إنزال ما وصلت إليه أفكار الإصلاحيين المتعلقة بالإصلاح الديني وتعليم المرأة على الواقع والخروج من ذاكرة القول إلى دائرة الفعل مستفيدة من انتعاشة حركة التحرر الوطني في جل ميادينها السياسية والنقابية والجمعياتية والثقافية والتي شهدتها تونس منذ أواخر عشرينات القرن العشرين إلى مطلع الخمسينات من نفس القرن. تتمثل هذه التجربة في ما يعرف بمشروع تعليم البنات ضمن ما سمي بالمدارس القرآنية التي أسسها الشيخ محمد الصالح النيفر.

3. الشيخ محمد الصالح النيفر ومشروع تعليم البنات المسلمة

تبيننا مما عرض أنّ جل الصحف التي عالجت موضوع تعليم البنات في الربع الأول من القرن العشرين قد دعا أصحابها إلى أن يكون تعليمها طبق برنامج قومي. وقد لخص محمد الجعايب هذا المنحى في جريدة الصواب سنة 1920 بقوله: "نحن لا نكره تعليم المرأة بل نراه شرطا لأمة تنشد

الرقبي وتتحفز إلى نهضة صادقة ولكننا نريد أن نعلم بناتنا طبق آدابنا وأخلاقنا وبلغتنا التي هي لساننا الرسمي والواسطة العظمى لفهم ديننا الذي يحتم على المرأة المسلمة أن تتشبع بمبادئه العالية.⁽⁴⁰⁾

جاءت هذه الدعوات في ظرف اتسم بتنامي عدد المدارس وعدد التلاميذ المقبلين على التعليم العمومي من جهة ومن جهة أخرى بداية انقسام النخبة التونسية حول أهداف وطرق تعليم المرأة: فالحركة التعليمية وإن بدت ضيقة إلا أنها أخذت في الاتساع، فقد شهد الثلث الأول من القرن العشرين تزايداً في المدارس القرآنية والعربية الفرنسية فانتشرت في المدن وأحدثت في بعض القرى. ودلت إحصائية لسنة 1906 على أن عدد المتعلمين بالمدارس الحكومية بلغ 3289 فتى و66 فتاة، أما في سنة 1923 فإن عدد المدارس ارتفع إلى 367 مدرسة وإنها كانت تأوي 17817 تلميذاً منهم 1688 فتاة، وفي سنة 1929 فقد باع عدد التلاميذ ما يقارب 28000 تلميذاً في المدارس الابتدائية وتجاوز 3500 في المعاهد الثانوية دون احتساب تلاميذ التعليم القرآني وطلبة الجامع الأعظم. وفي سنة 1938 بلغ عدد التلاميذ في الابتدائي 38609 تلميذاً منهم 5714 تلميذة.⁽⁴¹⁾

هذه الأرقام تبين أن المجتمع التونسي بدأ يشهد تحولات عميقة في بنيته وما انتشر التعليم إلا أحد مؤشرات هذا التحول الذي يبدو أنه لم يشمل البنت المسلمة إلا بصورة محتشمة عكست توجساً مجتمعياً من طبيعة التعليم والبرامج التي كانت تتلقاها المرأة في هذه المدارس العمومية وذلك في وقت احتدم فيه النقاش بين النخبة حول مسألة تحرير المرأة وانقسمت هذه النخبة بين دعاة التعليم دون سفور وبين دعاة السفور وخلع الحجاب.⁽⁴²⁾

عارض جل التونسيين تعليم الفتيات التونسيات في مدارس حكومية طبق المناهج والبرامج المتبعة في أوروبا حتى جلوسهن أمام معلمة فرنسية لم يباحه البعض منهم وذلك خوفاً من القضاء على الروح القومية، إذ المرأة درع تجب حمايتها من التذبذب والاندماج الذي كانت تسعى فرنسا إلى تحقيقه.⁽⁴³⁾

في المقابل بدأ يظهر على الساحة الفكرية والأدبية التونسية تيار إصلاحى ينادي بأن يكون تعليم المرأة مقترناً ومؤدياً إلى سفورها ومشاركتها الرجل وظائفه.⁽⁴⁴⁾ وكثرت الأصوات بين الكتاب والصحافيين التونسيين حول تعليم المرأة والحجاب وانقسموا كما ذكرنا إلى ثلاثة فرق: أحدهما يدعو إلى

تحررها الذي يعني السفور والثاني محافظ يناصر الحجاب أما الثالث فوسطي اعتبر أن المجتمع التونسي غير مؤهل لقبول السفور .

لقد بينت الدراسات التاريخية أن ثلاثينات القرن العشرين اتسمت بذروة الكتابات والمقالات الجدلية الحجاجية حول السفور. وقد بين أحمد خالد أن كتابات كثيرة كتبت بأسماء نسائية مستعارة للتدليل على وجود صوت نسوي يكتب ويطالب بالتحرر⁽⁴⁵⁾. وقد ساهم هذا المناخ الفكري الجدالي إلى حد كبير في ظهور مؤلفات على قدر كبير من الجرأة منها كتاب الطاهر الحداد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع"، ولكنها أيضا ساهمت في بوادر ظهور عمل نسوي وإن بصفة محتشمة تمثل في بدء ظهور نساء سافرات يخطبن في منتديات فكرية⁽⁴⁶⁾، ولكن أيضا ظهور جمعيات نسوية ولكنها كانت محدودة الانتشار⁽⁴⁷⁾ وربما يفسر ذلك بمحدودية عدد الفتيات والنساء اللواتي يقبلن على التعليم العمومي رغم نسق ارتفاعه الطفيف ورغم ما أفرزه من ظهور لأسماء ناشطات في الحركة النسوية التونسية.

فقد بينت دراسات تاريخية أن عدد التلميذات المسلمات في المدارس الابتدائية عام 1930 بلغ 2924 تلميذة وفي المدارس التكميلية خمسة وفي المدارس الابتدائية الخاصة 617 تلميذة وفي الابتدائية العالية (الثانوية) 246 تلميذة وتفوقت بعضهن في الدراسة مثل توحيدة بن الشيخ أول طبيبة تونسية⁽⁴⁸⁾.

تبقى هذه الأرقام على أهميتها محتشمة وغير ممثلة لعموم التونسيين الذين لا يزالون غير واثقين في التعليم العمومي الذي كان بالنسبة إليهم شكلا من أشكال الفرنسة وتذويب الشخصية التونسية وذلك على الرغم من أن طبيعة التونسي كما بين الهادي التيمومي توافقة للتعليم⁽⁴⁹⁾. وإنما نجد ما يبرر من الوقائع التاريخية هذه النزعة، ذلك أنه، أمام امتناع التونسيين عن تعليم بناتهم في المدارس الحكومية في مقابل تنامي التيار الإصلاحية الزيتوني والمدرسي الداعي إلى ضرورة تعليم المرأة، جاءت مبادرة الشيخ محمد الصالح النيفر⁽⁵⁰⁾ لتأسيس فرع نسائي لجمعية الشبان المسلمين باسم "الاتحاد النسائي

الإسلامي"، ومن بين السيدات النشاطات سعاد بنت محمد الصالح ختاشي حرم الشيخ محمد الصالح النيفر وشريفة بنت محمد بن حسونة وبشيرة بن مراد وغيرهن كثيرات. وقد اتفقت مؤسسات الفرع النسائي على أن يكون في طالع عملهن التعليم والإرشاد وإلقاء الدروس على الأمهات والأهم هو إنشاء

مدرسة للبنات المسلمات يتتقن فيها ثقافة إسلامية صميمة⁽⁵¹⁾. ويذكر أنّ هذه الدعوة لقيت قبولا واسعا لدى التونسيين حيث تقبل الرأي العام التونسي هذه الحركة النسوية الواقعة تحت إشراف جمعية الشبان المسلمين الزيتونية المنشئ والأهداف في حين كان يعارض بشدة كل حركة قبلها بسبب التوجس من مشروعها الهادف إلى توجيه المرأة التونسية نحو تقليد المرأة الأوروبية. أما جمعية الشبان المسلمين فقد دعت إلى حركة نسوية وفق النظم الإسلامية⁽⁵²⁾.

ويذكر الشيخ محمد الصالح النيفر أنّ هذا الفرع كان يمولّ التعليم وأثاثه، ووقع السعي لبناء مدرسة قرآنية لتعليم البنات، كما قام الفرع بتعليم الأميات والمسلمات التونسيات اللواتي تعلمن بالفرنسية ولا يتقن العربية وتم فتح قسمين لتعليم الصغيرات⁽⁵³⁾.

لقد أثمر هذا الجهد الأولي لجمعية الشبان المسلمين إنشاء ما يعرف بمدرسة "البنات المسلمة" سنة 1947 بنهج السراجين. وقد امتد تعليم البنات المسلمة من تونس إلى ماطر. وكان التعليم يشتمل على القراءة والكتابة والعلوم والفنون بالعربية وحصة واحدة في اليوم باللغة الفرنسية كلغة أجنبية مع حصة في اليوم للصناعة اليدوية⁽⁵⁴⁾.

وقد انبثق عن مدرسة السراجين توسعا في المشروع شمل الأطفال ببعث ما عرف "روضة البنات المسلمة" التي وجدت إقبالا شعبيا كبيرة حسب شهادة النيفر مما سمح ببعث فروع لها بكل من حمام الأنف وباب الخضراء. لقد حقق هذا المشروع جملة من النتائج المهمة منها:

- نشر التعريب بين التونسيين والتونسيين وبذلك أسقطت مشروع فرنسا العامل على فرنسة الأسرة التونسية وتغيير نمط عيشها⁽⁵⁵⁾.
- اندماج هذه المدارس النسائية في المنظومة التعليمية الرسمية (الزيتونة، وزارة المعارف) وغذتها بالفتيات اللواتي يتقن العربية، وقد تأسس الفرع الزيتوني للبنات المسلمة سنة 1949 وتغذي من مؤسسة محمد الصالح النيفر⁽⁵⁶⁾.
- زوّدت مؤسسة النيفر البنات المسلمة المؤسسات والإدارات الحكومية برصيد مهم من النساء اللواتي يتقن العربية خاصة وأنّ سياسة الحكومة قبل الاستقلال ارتكزت على مبدأ التعريب.

كما وجدت هذه المدرسة مساندة من المحافظين في الزيتونة ورأوا فيها استجابة لمطلبهم في تعليم البنات دون مسخ هويتها، كما لاقت التجربة رواجاً في الشرق حيث يذكر النيفر في مذكراته زيارة شريطين للجمعية وتبرعهم لتعليم البنات المسلمة⁽⁵⁸⁾.

إلا أن هذه التجربة برمتها انتهت إلى الغلق والمنع كما حصل مع التعليم الزيتوني برتمته. ويذكر الشيخ محمد الصالح النيفر أن الأستاذ سعيد الأفغاني تنبأ بزوال مدرسة تعليم البنات المسلمة لأنه كان يرى أن جماعة الحكومة في تونس الاستقلال "وراءهم الكنيسة، والكنيسة لا تسمح بمدرسة مثل هذه"⁽⁵⁹⁾.

إن هذا الاستشراف ربما كان صائبا إذ أن مشروع التعليم في تونس مع دولة الاستقلال بني على مشروع دوبياس وهو المشروع الفرنسي الذي كان يدعو للإبقاء على ازدواجية لغة التعليم وتكريس أفضلية اللغة الفرنسية في تدريس العلوم والتقنية وتقزيم دور الجامعة الزيتونية بجعلها مجرد كلية للشريعة ضمن جامعة تونسية تابعة بشكل أو بآخر لجامعة باريس⁽⁶⁰⁾.
لقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

- لقد تبيننا أن فكرة تحرير المرأة قديمة ولها جذور ترتبط بالمدرسة الإصلاحية التونسية والعربية عامة وهي تندرج ضمن ملف تجديد الفكر الديني في بعده الاجتماعي. ولعل تحرير المرأة يعد أحد الأبعاد الاجتماعية لتجديد الفكر الديني وذلك منذ رفاة رافع الطهطاوي.
- إن الحراك الفكري الذي عبرت عنه النقاشات والكتابات الجريئة في تونس منذ مطلع القرن 20 أثمر نواتات لعمل ميداني شمل مسألة تحقيق إخراج المرأة من خدرها وفتح آفاق التعليم أمانها.
- إن الحيوية الفكرية وما رافقها من تجارب ميدانية في أربعينات القرن العشرين وحتى قبل ذلك استفادت من ظرفية تاريخية نشطة تميزت بإبداعات فكرية وأدبية تونسية قياسية في ظل الاستعمار في قطع هذا العقل عن جذوره الإسلامية العربية وذلك على الرغم من البوادر الطولى لنشأة التيار العلماني الذي يقوده بورقيبة والحزب الدستوري الجديد.

- إنّ هذا الحراك هو الذي شكل أرضية خصبة وثرية أولا لتحرير مجلة الأحوال الشخصية من قبل ثلة من فقهاء الزيتونة وعلمائها وثانيا نجاح بورقيبة في تمرير هذه المجلة وعدم مجابتهه لأية مواجهة مجتمعية بل أصبحت مسألة تحرير المرأة في تونس تنسب له.

الهوامش:

- (1) صدرت مجلة الأحوال الشخصية يوم 13 أوت 1956 وأصبح هذا اليوم عيداً وطنياً للمرأة التونسية.
- (2) الجندلي (حامد)، قانون الأحوال الشخصية التونسي وعلاقته بالشريعة الإسلامية، مجمع الأثرش للكتاب المختص، تونس 2011.
- (3) ضيف الله (محمد)، أواخر الزّيتونيين وجوه وأدوار وعلاقات، مكتبة تونس، ط 1، تونس 2016.
- انظر أيضاً: الزّيدي (علي)، دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقس 2014، ص 95.
- (4) الثعالبي (عبد العزيز)، روح التحرر في القرآن.
- (5) اتسمت هذه المرحلة (أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) بازدهار الصحافة العربية مشرقاً ومغرباً.
- راجع: الزّيدي (علي)، دراسة في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، منشورات منتدى الفارابي للدراسات والبدائل، صفاقس 2014.
- (6) النيفر (احميده)، الخطاب الديني في الصحافة التونسية، مركز النشر الجامعي، تونس 2007، ص 53. / انظر أيضاً: الزّيدي (علي)، دراسة في تاريخ التعليم، م. س، ص 23: وقد ذكر أنّ مجلة المنار لصاحبها محمد رشيد رضا قد انتشرت انتشاراً واسعاً بالقطر التونسي وكانت تدعو بتوجيه من الشيخ محمد عبده إلى تأييد حركة الإصلاح التعليمي وتقرنها بحركة الإصلاح الديني. / راجع أيضاً ابن عاشور (محمد الفاضل)، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972، ص 65.
- (7) النيفر (احميده)، الخطاب الديني، م. س، صص 53 - 54.
- (8) الثعالبي (عبد العزيز)، مقال صدر له بجريدة تونس التي يشرف على إدارتها زين العابدين السنوسي يوم 29 مارس 1938 ذكره احميده النيفر في كتابه: الخطاب الديني، م. س، ص 118.
- (9) النيفر (احميده)، الخطاب الديني، م. س، ص 118 يقول الثعالبي في رسالة منسوبة إليه نشرت في مجلة المنار: "لنا علماء لكنهم جاهلون متكبرون متغابون حديثهم حديث بطونهم ومباحثهم خاصة بعجائب التكايا وكرامات القبور..."

- (10) النيفر، م. ن، ص 125.
- (11) النيفر، م. ن، ص 154.
- (12) الثعالبي، روح التحرر في القرآن، تعريب حمادي الساحلي، مراجعة محمد المختار السالمي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985.
- (13) العياشي (المختار)، البيئة الزيتونية 1910 – 1945، تعريب حمادي الساحلي، دار التركي للنشر، تونس 1990.
- (14) الثعالبي، روح التحرر في القرآن، م. س، ص 29.
- (15) الطهطاوي، المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين.
- (16) أمين (قاسم)، تحرير المرأة/ المرأة الجديدة.
- (17) الحاضرة جريدة أسبوعية سياسية أدبية تصدر كل يوم ثلاثاء ظهر عددها الأول في 24 ذي القعدة 1305 هـ / 2 أوت 1888م، النيفر، م. س، ص 69.
- (18) النيفر، الخطاب الديني، م. س، 101، مقال بعنوان "تعليم البنات" بتاريخ 01 ماي 1900.
- (19) الحاضرة، مقال "نظرة في تعليم المرأة" بتاريخ 12 مارس 1904.
- (20) النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 102.
- (21) م. ن، ص 103.
- (22) مقال صدر بالحاضرة بتاريخ 09 أكتوبر 1889 بعنوان "النساء والكتابة".
- (23) النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 104.
- (24) الحاضرة 12 مارس 1901: جاء في مقال عنوانه "نظرية في تعليم المرأة": "التعليم تعليمين إسلامي وإفرنجي فلا يسوغ للبنات التوغل في العلوم والفنون المستطرفة إلى درجة تحاكي الرجال".
- (25) الحاضرة 12 جوان 1904 في مقال "السم في الدسم" استشهدت الجريدة بالأميرة نازلي فاضل التي كان قصرها في المرسى قبلة لرجال الإصلاح مشرقا ومغربا منهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور وعبد الجليل الزاوش والشيخ محمد عبده.
- ذكر ذلك احميدة النيفر في كتابه الخطاب الديني، م. س، ص 104.
- (26) المشير، نشرة إسلامية إصلاحية أسبوعية مديرتها الطيب بن عيسى، صدر أول عدد منها بتاريخ 01 جانفي 1911.

- (27) ترى جريدة المشير (17 سبتمبر 1911) "أن موروث عصور الانحطاط ساهم في تركيز معتقدات وحقائق غير قابلة للنقاش في حين أنها مجرد أوهام... حتى ساد الاعتقاد أن انحطاط المرأة سنة من سنن الله. إنها قضية خاطئة لأن تربية البنات وتعليمهن فرض محتوم مثل الذكور بلا فرق ولا ميز"، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 287.
- (28) مقال ورد بجريدة المشير للطبيب عيسى تحت عنوان: النفائس الشعرية بتاريخ 27 جانفي 1911، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 289.
- (29) مجلة خير الدين مديرها محمد الجعايبي صدر أول عدد منها بتاريخ 27 مارس 1906، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 205.
- (30) مجلة خير الدين 24 جوان 1906، مقال للجعايبي، ذكره احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 233.
- (31) احميدة النيفر : م. ن، ص 234.
- (32) م. ن، ص 235.
- (33) مجلة أسبوعية أدبية أخلاقية تصدر في منتصف كل شهر، وقد صدر العدد الأول يوم 14 جوان 1908 ومديرها محمد الصادق بن إبراهيم.
- (34) جريدة يومية سياسية أدبية تجارية مديرها البشير الفورتي صدر أول عدد منها بتاريخ 30 جويلية 1907.
- (35) احميدة النيفر، الخطاب الديني، م. س، ص 377.
- (36) الزيدي (علي)، دراسات في تاريخ التعليم بالبلاد التونسية في الفترة المعاصرة، م. س، ص 23.
- (37) م. ن، ص 25/ انظر أيضا العياشي (مختار)، البيئة الزيتونية 1910 - 1945، دار الفكر للنشر، تونس 1990، ص 24 ..
- (38) علي الزيدي، م. ن، ص 23/ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور، الحركة الأدبية والفكرية، م. س، ص 73.
- (39) حول كتاب الطاهر الحداد "امرأتنا في الشريعة والمجتمع" والسجال الذي فجره بين النخبة التونسية الزيتونية والمدرسة المحافظة والمجددة راجع كتاب: خالد (أحمد)، أضواء من البيئة التونسية: الطاهر الحداد ونضال جيل، الدار التونسية للنشر 1985.
- (40) جريدة الصواب، 7 ماي 1920 مقال بعنوان: "المرأة واللغة والدين" بقلم: محمد الجعايبي.
- (41) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 93.

- (42) م. ن، ص 245. / انظر أيضا: عبد الوهاب (حسن حسني)، شهيرات تونسيات، مكتبة المنار، تونس 1986، ص 151.
- (43) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 246، يذكر أن الأديب سعيد بويكر كتب في جريدة لسان الشعب 1928 مقالا عنوانه "حول تعليم البنات" أشار فيه إلى ضرورة درء الخطر الذي يهدد الذاتية التونسية في عهد الاستعمار، واقترح فتح مدارس وطنية حرة وجلب معلمات مصريات أو سوريات.
- (44) م. ن، ص 272. حيث عقد المؤلف فصلا تحت عنوان: شعراء مصلحون في معركة السفور وتعليم المرأة وترقيتها. كما يذكر المؤلف ص 249 أن الشيخ سالم بن حميدة الذي طبق دعوة تحرير المرأة في بناته وكتب في رسالة إلى أحد أصدقائه "إن التعليم الواجب إعطاؤه للمرأة التونسية المسلمة هو الذي يؤهلها لأن تكون معلمة ومشرفة ناخبة ومنتخبة سياسية داعية للسلم والصلح كأم المؤمنين عائشة..."
- (45) م. ن، ص 253.
- (46) م. ن، صص 253 - 260 حيث يذكر في هذا الإطار اسم منوبية الورتاني التي خاطبت جمهور الرجال سافرة سنة 1924 والسيدة حبيبة المشري التي اعتلت سافرة منبر جمعية الترقى يوم 09 جانفي 1929.
- (47) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 267.
- (48) م. ن، ص 206.
- (49) التيمومي (الهادي)، تاريخ تونس الاجتماعي 1881 - 1956، دار محمد علي الحامي، صفاقس 1997.
- (50) من رواد الصحة الإسلامية في تونس والجزائر الشيخ محمد الصالح النيفر 1902 - 1993 مسيرة نضال، د. د. ن، 2007: الكتاب عبارة عن مجموعة وثائق ومذكرات تركها الشيخ محمد الصالح النيفر جمعتها ابنته أرو النيفر بجمعية الأستاذ الباحث عبد الرحمان الهذلي.
- (51) أحمد خالد، أضواء على البيئة التونسية، م. س، ص 273.
- (52) م. ن، ص 274/ انظر أيضا محمد صالح النيفر مسيرة نضال، صص 148 - 149 حيث يذكر النيفر: "سмина هذا الفرع الجديد السيدات المسلمات وأهم ما اعتنى به ذلك الفرع التعليم العربي وشكلت الهيئة المديرية له فترأستها زوجة رئيس الجمعية."
- (53) محمد صالح النيفر، م. س، ص 150.
- (54) م. ن، ص 154.

(55) م. ن، ص 232.

(56) م. ن، ص 154.

(57) علي الزيدي، دراسات في تاريخ التعليم، م. س.

(58) محمد الصالح النيفر، م. س، صص 156 – 157.

(59) م. ن

(60) علي الزيدي، دراسات في تاريخ التعليم، م. س، ص 117. / حول مشروع دوبياس انظر مقالا في نفس الكتاب بعنوان

”دوبياس ولغة تدريس العلوم بتونس“ صص 121 – 134.